

شُعْرَاءُ الْبَصْرَةِ صَوْتُ الْإِصْلَاحِ السِّيَاسِيِّ
وَالاِقْتِصَادِيِّ
(العصر الأمويُّ أنموذجاً)

Poets of Basra The Voice of Political and
Economic Reforms
The Umayyad Era as an Example

أ.م.د. سجا جاسم محمد م.د. أنوار مجيد سرحان
كلية الآداب / جامعة بغداد

Dr. Saja J. Mohammad, assistant professor
Dr. Anwar M. Sarhan, Lecturer
(College of Arts, University of Baghdad)

ملخص البحث

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسّلام على خير داعية، رسول الهداية والمودّة والرّحمة، محمّد ﷺ، وعلى آله الغرر الميامين المطهّرين.

وبعد:

لا يخفى على المتتبّع لبيئة البصرة ما انمازت به من دراسات متنوّعة شملت العلوم كافّة، ومن بين هذه العلوم الأدب؛ إذ عُرفت البصرة بحركة أدبيّة متطوّرة عبر العصور الأدبيّة كافّة، وقد وقف شعراء البصرة عند الكثير من القضايا الاجتماعيّة، والسّياسيّة، والاقتصاديّة لغرض النقد، والتنبيه، والمعالجة. فقد كان الشعراء صوت الشعب في بيئة البصرة، فنقلوا للقارئ الكثير من الصّور التي وجدت في المجتمع البصريّ قديماً وحديثاً، وقد ظهرت العديد من الدّراسات التي عُنت بالحركة الأدبيّة في البصرة. وقد جاء بحثنا هذا ليسلّط الصّوء على حركة الإصلاح السّياسيّ والاقتصاديّ التي عبّر عنها شعراء البصرة في العصر الأمويّ، وقد سار البحث على وفق خطة معيّنة، فقد جاء على تمهيدٍ وضّحنا فيه مصطلح الإصلاح، ولا سيّما السّياسيّ والاقتصاديّ. بعد ذلك فسّمنا البحث على مبحثين، تناولنا في الأوّل: الإصلاح السّياسيّ، ودرسنا في المبحث الثاني الإصلاح الاقتصاديّ، وتبعنا ذلك بخاتمة عرضنا فيها أهمّ نتائج البحث.

Abstract

Basra has been well-known, throughout history, for its various movements and activities. The literary movement has been one of the most outstanding among other movements. Poets of Basra tackled social, political, economic, and other aspects. They have been the voice of the people. For this purpose, they conveyed to the reader, in the past and in present, images representing Basra milieu. The present research paper sheds light on the movement of political and economic reforms in the city during the Umayyad period. The paper is divided into an introduction where the term 'reform' is explained especially in its political and economic aspects. Then these two aspects are studied in detail followed by a conclusion.

التّمهيد

الإصلاح اسم من الفعل (صلح)، نقول: صَلَح، يَصْلُحُ، وَيَصْلُحُ، صَلَاحاً، وَصُلُوحاً، وَالصَّلَاحُ: ضدّ الفساد^(١). فالإصلاح هو التغيير، والتقويم، والتحسين.

ومّا تقدّم، فإنّ الإصلاح يعني: حركة تغيير في مجالٍ ما، كأن يكون سياسياً، أو اقتصادياً، أو اجتماعياً، يرمي إلى تغيير حالةٍ ما، وإحداث تغيير نوعيٍّ فيها، وهذا التغيير يكون لصالح المجتمع. وفي بحثنا هذا قصدنا بصوت الإصلاح، كون الشاعر في العصور الأدبية كلّها كان يمثل صوت الشعب، وكان ينقل الظواهر الإيجابية والسلبية التي كانت في المجتمع، وبما أنّ الإصلاح ظاهرة اجتماعية كونها تنتج من المجتمع بهدف تغيير حالة ما، لذا كان شعراء البصرة صوت الإصلاح السياسي والاقتصادي في العصر الأمويّ.

أمّا قولنا: الإصلاح السياسيّ، فنقصد به أصوات الشعراء التي ارتفعت بهدف إحداث تغيير يخصّ الجانب السياسيّ في الدولة، كأن يكون تغيير حاكم، أو والٍ، أو قانون سياسيّ، وغير ذلك.

أمّا الإصلاح الاقتصاديّ، فنقصد به: الدعوة إلى تغيير حالة اقتصادية في المجتمع، كأن ترتفع الأصوات لغرض رفع المستوى المعيشيّ لفئة معيّنة من

المجتمع تعاني من الفقر وغيره.

يبقى أن نقول: إنَّ الإِصْلاَحِينَ السِّيَاسِيِّ وَالاِقْتِصَادِيِّ يَخْتَلِفَانِ مِنْ عَصْرِ إِلَى آخِرٍ، بِحَسَبِ أحوالِ التَطَوُّرِ وَالتَّجْدِيدِ الَّتِي تَشْهَدُهَا العَصُورُ المَخْتَلِفَةُ. وفي ضوءِ دِراسَتِنَا لِشِعْرِ البَصْرِيِّينَ، تَوَضَّحَتْ لَنَا ثَلَاثَةُ خُطُوطٍ، سَارَ فِيهَا الشُّعْرُ فِي البَصْرَةِ، وَهَذِهِ الخُطُوطُ رَسَمَتْ تَفَاعُلَاتِ الحَيَاةِ بِمَا فِيهَا مِنْ تِراثٍ وَقيمٍ؛ إِذْ ثَمَّةُ تَفَاعُلٍ بِمَا كَانَ، وَبِمَا هُوَ كائِنٌ، وَبِمَا سَيَكُونُ، وَهَذِهِ الخُطُوطُ هِيَ، الأَوَّلُ: تَارِيخِيٌّ يَاقِفُ عِنْدَ تَمثِيلِ الشُّعْرَاءِ لِمَاضِي أُمَّتِهِمْ، وَالثَّانِي: عَصْرِيٌّ يَجِدُّ الحَيَاةَ الوَاعِيَةَ المَتَمَثِّلَةَ فِي آثارِ الآخِذِينَ بِهَا مِباشِرَةً، وَالثَّالِثُ: بَيْنَ هَذِهِ النِّزَعَاتِ الَّتِي تَرْمِي إِلَى التَّحَرُّرِ مِنْ قِيُودِ بَعينِهَا؛ فِي سَبِيلِ إِيجادِ حَيَاةٍ أَكثَرَ مِثاليَّةً، وَأَقْدَرِ عَلى تَوفِيرِ السَّعَادَةِ^(٢). وَمِنْ بَيْنِ هَذِهِ الخُطُوطِ يَظْهَرُ لَنَا تيارُ الإِصْلاَحِ الَّذِي جَاءَ بِه شِعْرَاءُ البَصْرَةِ، مَحاولِينَ إِصْلاَحَ ما وُجِدَ مِنْ خَلَلِ سِياسِيٍّ أَوْ اِقْتِصَادِيٍّ، عَنِ طَرِيقِ شِعْرِهِمُ الَّذِي قِيلَ بَيْنَ أَيْدِي الخُلَفَاءِ وَالوَلَاةِ؛ كَوْنِهِم جَعَلُوا أَنْفُسَهُمْ سَفْرَاءَ عَنِ قَوْمِهِمْ فِي نَقْلِ الحَالَةِ، وَهَذَا ما سَتَتَعَرَّفُ عَلَيهِ فِي بَحْثِنَا هَذَا.

المبحثُ الأوّلُ: الإصلاحُ السّياسيّ

مثّل الشّعْر في بيئة البصرة ميداناً واسعاً لدراسة مظاهر مختلفة لحياة مجتمع البصرة، فقد كان مرآة صادقةً معبرةً عن نشاطاتٍ وفعالياتٍ إنسانيّةٍ وعواملٍ شتى، ظهرت في بناء المجتمع البصريّ الفكريّ والعقائديّ، وفي علاقاته الاجتماعيّة، وما يحكمها من عاداتٍ وتقاليّدٍ وأصولٍ تقوم عليها، فضلاً عن علاقاتها الاقتصاديّة وما ينشأ عنها من أنماط معيشيّة بتأثيرات البيئة وطبيعتها الجغرافيّة والنظام الاقتصاديّ الذي تقوم عليه، والنظام السّياسيّ الذي يسيطر عليها، متمثلاً بالدولة الأمويّة، وما تبعها من صراعٍ سياسيّ امتدّ من نهاية حكم عثمان إلى نهاية العصر الأمويّ. فكان العصر الأمويّ حافلاً بالصّراعات السّياسيّة المختلفة، ويرافق هذه الصّراعات ظاهرة أخرى وُجدت في العصر الأمويّ، ولا سيّما في مجتمع البصرة، تمثّلت بظاهرة التّرف والبذخ التي عُرف بها الأمويّون، إلاّ أنّه على الرّغم من ذلك، كان المجتمع يشكو سوء الأوضاع الاقتصاديّة، فضلاً عن سوء الأوضاع السّياسيّة، ففساد بعض الحكّام والولاة والسّعاة، وقبولهم الرّشواى، وفرضهم الضّرائب، واستبدالهم بالأموال وحرمان الآخرين منها، كان دافعاً للشّعراء للنهوض بمهمّاتهم جاعلين الشّعْر مرآة ناطقةً ومعبرةً عن الوضع السّياسيّ، والاقتصاديّ، اللّذين أخذوا أشكالاً عديدةً ولبوساً متنوّعةً،

فأطلقوا أصواتهم للتعبير عن تلك الأوضاع، ثائرين مطالبين بالإصلاح، محاولين رفع الظلم عمَّن ظلم، والتخفيف عمَّن أحسَّ بالعوز والحاجة. ومن بين هؤلاء الشعراء (شعراء البصرة)، فقد كان للشعراء البصريين دورٌ كبيرٌ ومشهودٌ له في الدِّفاع عن شرف قومهم، والمنافحة عن حقوقهم، والتحدُّث بلسانهم في مختلف المناسبات والقضايا التي تهمهم. ومن بين ما ارتفعت به أصوات الشعراء الدعوة إلى الإصلاح السِّيَاسِيِّ كردَّة فعلٍ منهم أمام سياسة بعض الولاة والحكَّام في البصرة الذين اتبعوا نهج الإثراء عن طريق السرقة وحيازة الأموال العامة، من ذلك أبيات قالها الشاعر أبو الأسود الدؤيِّ لحارثة بن بدر الغدائي، الذي عيَّن أميراً على سُرِّق إحدى مناطق الأهواز، قائلاً: (من الطويل)

أحارِ بنَ بدرٍ قد وُلِيتَ ولايةً فكنْ جُرْداً فيها تخونُ وتسرقُ
فلا تحقرنْ يا حارِ شيئاً تُصيبُهُ فحظُّك منْ مُلكِ العراقينِ سُرِّقُ
فإنَّ جميعَ النَّاسِ إمَّا مكذِّبٌ يقولُ بما يهوى وإمَّا مُصدِّقُ
يقولونَ أقوالاً بظنٍّ وشُبْهةً فإنَّ قِيلَ هاتوا حقَّقوا لم يحقِّقوا
ولا تعجزنْ فالعجزُ أخبثُ مركبٍ فما كلُّ مدفوعٍ إلى الرِّزقِ يُرزقُ
وبارزُ تيمماً بالغنى إنَّ للغنى لساناً به المرءُ الهيوبَةُ ينطقُ^(٣)

والملاحظ أنَّ الشاعر استعمل أسلوب السَّخرية لنقد حالة السرقة التي عُرف بها عددٌ من الولاة والأمراء، وغرضه في ذلك رفع صوته للمتلقِّي لغرض الإصلاح والتنبية، ولا سيَّما أنَّ الشاعر بدأ قصيدته بأسلوب النداء بالهمزة (أحارِ بن بدر...)، الذي خرج إلى معنى التنبية والتحذير للمخاطب.

ونراه في أبياتٍ أخرى يوجَّهُ نقده إلى والي البصرة الحارث بن عبد الله القُبَاعِ،

الذي لاهمّ له سوى التمتع بما لذ الحياة، وترك أمور الرعيّة، فضلاً عن شخصيّته التي تميّزت بعدم قدرتها على إحكام الأمور وتديرها، وإعطاء الرأى والثبات فيه، ما أدّى إلى ضياع حقوق الرعيّة؛ بسبب ضعف شخصيّة الوالي أو العامل، فرفع هذه الأبيات إلى عبد الله بن الزبير لغرض الإصلاح قائلاً: (من الوافر)

أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ جُزَيْتَ خَيْرًا أَرْحَنَا مِنْ قُبَاعِ بَنِي الْمُغِيرَةِ
بَلَوْنَاهُ وَلَمْنَاهُ فَأَعْيَا عَلَيْنَا مَا يُؤْمِرُ لَنَا مَرِيرَهُ
عَلَى أَنْ الْفَتَى نَكْحَ أَكُوْلُ وَمَسْهَابٌ مَذَاهِبُهُ كَثِيرُهُ^(٤)

أما الفرزدق، فقد كان صوت قومه، فقد «اعتدّ نفسه سيّد تميم، والمدافع عنها والناطق باسمها»^(٥) قائلاً في ذلك: (من الطويل)

أَنَا ابْنُ تَمِيمٍ وَالْمَحَامِي الَّذِي بِهِ تُحَامِي إِذَا عُرِبَتْ تَفَرَّى أَدِيمُهَا^(٦)

ومّا قاله في دعوة للإصلاح، وجهها إلى الوليد بن عبد الملك ينتقد فيها عمّاله، وجورهم على الرعيّة، قائلاً: (من الوافر)

رَجَاكَ الْمَشْرِقَانِ لِكُلِّ عَانَ وَأَرْمَلَةٌ وَأَصْحَابِ الثُّغُورِ
وَكُنْتَ جَعَلْتَ لِلْعَمَالِ عَهْدًا وَفِيهِ الْعَاصِمَاتُ مِنَ الْفُجُورِ
أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْتَ تَشْفِي بَعْدِلِ يَدِيكَ أَدْوَاءَ الصُّدُورِ
فَكَيْفَ بَعَامِلٍ يَسْعَى عَلَيْنَا يُكَلِّفُنَا الدَّرَاهِمَ فِي الْبُدُورِ
وَأَنْتِ بِالْدَّرَاهِمِ وَهِيَ مِنَّا كِرَافِعَ رَاحَتِيهِ إِلَى الْعُبُورِ
إِذَا سَقْنَا الْفَرَاثِضَ لَمْ يُرْذَهَا وَصَدَّ عَنِ الشُّوْبِيَةِ وَالْبَعِيرِ
إِذَا وَضَعَ السَّيَاطَ لَنَا نَهَارًا أَخَذْنَا بِالرِّبَا سَرَقَ الْحَرِيرِ
فَأَدْخَلْنَا جَهَنَّمَ مَا أَخَذْنَا مِنَ الْإِرْبَاءِ مِنْ دُونَ الظُّهُورِ

فَلَوْ سَمِعَ الْخَلِيفَةُ صَوْتَ دَاعٍ يُنَادِي اللَّهَ هَلْ لِي مِنْ مُجِيرٍ؟
وَأَصْوَاتُ النِّسَاءِ مُقَرَّنَاتٌ وَصَبِيَانُ هُنَّ عَلَى الْحُجُورِ
إِذَا لَأَجَابَهُنَّ لِسَانُ دَاعٍ لِدِينِ اللَّهِ مِغْضَابٌ نَصُورٍ^(٧)

ويُعدُّ الرَّاعي النُميريُّ من أبرز الشعراء الذين دعوا إلى الإصلاح السِّيَاسِيِّ ضدَّ الظلم والفساد الناتج عن قسوة السَّعة والعمَّال، الذين أَرهقوا قومه، وأفقرَّوهم بفرضهم الضرائب الباهظة، ومعاملتهم القاسية؛ إذ عمدوا في أحيان كثيرة إلى الضرب والإذلال، فلم يكن الشَّاعر «بائساً ولا محروماً؛ ولكنه كان يشعر بما يشعر به قومه ويحسُّ بما يحسُّون...»^(٨)، ولعلَّ قصيدته التي بعث بها إلى عبد الملك بن مروان (ت ٨٦هـ) تعبَّر عن مدى المرِّ والألم اللَّذين أحسَّ بهما الشَّاعر؛ نتيجة ما لحق بقومه من السَّعة الذين لم يمثِّلوا لأوامر الحاكم، فالشَّاعر «ندب نفسه محامياً عن قومه ناقداً عمَّال الخليفة»^(٩)، ويقول فيها: (من الكامل)

أَبْلُغْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ رِسَالَةً شَكْوَى إِلَيْكَ مُظَلَّةً وَعَوِيلاً
مِنْ نَازِحٍ كَثُرَتْ إِلَيْكَ هُمُومُهُ لَوْ يَسْتَطِيعُ إِلَى اللَّقَاءِ سَبِيلاً
طَالَ التَّقَلُّبُ وَالزَّمَانُ وَرَابَهُ كَسَلٌ، وَيَكْرَهُ أَنْ يَكُونَ كَسُولاً
أَوَّلِيَّ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ عَشِيرَتِي أَمْسَى سَوَامُهُمْ عَزِيزِينَ فُلُولاً
قَطَعُوا الْبِيَامَةَ يَطْرُدُونَ كَأَنَّهُمْ قَوْمٌ أَصَابُوا ظَالِمِينَ قَتِيلاً
يَجِدُونَ حُدُباً مَائِلاً أَشْرَافُهَا فِي كُلِّ مَنزَلَةٍ يَدْعُنَ رَعِيلاً
شَهْرِي رَبِيعٌ مَا تَذُوقُ لُبُونَهُمْ إِلَّا أَحْمُوضاً وَخِصَّةً وَدَوِيلاً
حَتَّى إِذَا جُمِعَتْ نُجُيْرٌ طَرُقُهَا وَتَنَا الرَّعَاءُ شَكِيرَهَا الْمُنْحُولاً
وَأَتَوْا نِسَاءَهُمْ بَنِيْبٍ لَمْ يَدْعُ سُوءَ الْمَحَابِسِ تَحْتَهُنَّ فَصِيلاً^(١٠)

ويلاحظ أنّ الأبيات تشير إلى عمق إيمان الشاعر، والتزامه القبلي تجاه أمور قومه؛ فبعد أن عبّر عن همومه الذاتية المتمثلة بتقدّم العمر ومشكلاته، انتقل إلى بيان الحالة التي لحقت بقومه عن طريق مخاطبة الممدوح، مُبيناً له ما أصاب قومه من تفرّق في البلاد، وسوء أحوالهم الاقتصادية؛ نتيجة جور السّعة وسيطرتهم على زمام الأمور، ثمّ يخاطب الشاعر الخليفة خطاباً مباشراً، وهو يلتبس منه أن يرفع عن قومه ما أصابهم بسبب ظلم السّعة الذين طغوا وأساءوا معاملة الرعيّة، حتّى أنّهم اعتدوا على شيخ القبيلة؛ لعدم امتثاله أوامرهم: (من الكامل)

فَادْفَعْ مَظَالِمَ عَيَّلْتَ أَبْنَاءَنَا عَنَا وَأَنْقِذْ شِلُونَنَا الْمَأْكُولَا
 إِنَّ السُّعَاةَ عَصَوْكَ حِينَ بَعَثْتَهُمْ وَأَتَوْا دَوَاهِي لَوْ عَلِمْتَ وَغَوْلَا
 إِنَّ الَّذِينَ أَمَرْتَهُمْ أَنْ يَعْدِلُوا لَمْ يَفْعَلُوا مِمَّا أَمَرْتَ فِتْيَالَا
 أَخَذُوا الْمَخَاضَ مِنَ الْفَصِيلِ غُلْبَةً ظُلْمًا وَيَكْتُبُ لِلْأَمِيرِ أَفْيَالَا
 أَخَذُوا الْعَرِيفَ فَقَطَعُوا حَيْرُومَهُ بِالْأَصْبَحِيَّةِ قَائِمًا مَغْلُولَا^(١١)

يتّضح من الأبيات أنّ الشاعر اتخذ دور السّفير عن قومه وقبيلته لدى الخليفة، مستنجداً ومستغيثاً به؛ لينقذ قومه من عمال الصدقات والسّعة الذين أنزلوا بهم أشدّ أصناف التعذيب والتنكيل؛ لكي يؤدّوا ما فرضوه عليهم من الضّرائب التي كانت سبباً في حرمانهم وعوزهم وفقرهم، فكانت قصيدته «تقريراً سياسياً في مدّة متقدّمة من التاريخ، ولكونها تعكس جانباً من الواقع السياسيّ الظالم»^(١٢). وللشاعر قصيدة أخرى قال عنها: «من لم يرو لي من أولادي هذه القصيدة...

فقد عقني»^(١٣)، قال فيها: (من البسيط)

إِنِّي وَإِيَّاكَ وَالشُّكُورَى الَّتِي قَصَّرْتُ خَطُوبِي وَنَائِيكَ وَالْوَجْدُ الَّذِي أَجْدُ

أَزْرَى بِأَمْوَالِنَا قَوْمٌ أَمَرْتَهُمْ
بِالْعَدْلِ فَيَنَافَتًا أَبْقَوْا وَمَا قَصَدُوا
نُعْطِي الزَّكَاةَ فَمَا يَرْضَى خَطِيئَهُمْ
حَتَّى نَضَاعِفَ أَضْعَافًا لَهَا عَدْدُ
أَمَّا الْفَقِيرُ الَّذِي كَانَتْ حَلُوبَتُهُ
وَفَقَّ الْعِيَالُ فَلَمْ يُتْرَكْ لَهُ سَبْدُ
وَاخْتَلَّ ذُو الْمَالِ وَالْمُتْرُونَ قَدْبَقِيَّتْ
عَلَى التَّلَاتِلِ مِنْ أَمْوَالِهِمْ عُقَدُ
فَإِنْ رَفَعَتْ بِهِمْ رَأْسًا نَعَشْتَهُمْ
وَإِنْ لَقُوا مِثْلَهَا فِي قَابِلٍ فَسَدُّوا^(١٤)

ونلاحظ في القصيدة إحساساً عالياً بالظلم والألم اللذين لحقا بالشاعر وقومه من عمال الصدقات، ابتدأها بمدح عبد الملك بن مروان، وتطرق بعدها إلى إظهار حالة الظلم التي شعر بها تجاه قومه، الناتجة عن ظلم السعاة الذين ضاعفوا الزكاة؛ ليثروا على حساب الرعية، حتى وصل أمر فقرائهم إلى احتياج أغنيائهم؛ لذا عبّر الشاعر عن ذلك بطريقة الاسترحام والاستعطاف، لطلب مساعدة الخليفة، فإن لم يُنصفهم فإلحاق مصيرهم، وإن أنصفهم فقد أحياهم. ونجد صورة أخرى من الإصلاح السياسي نادى بها شعراء البصرة تمثلت بسياسة العصبية القبلية؛ إذ اعتمدت السياسة الأموية في إقامة حكمها على إثارة العصبية والنعرات القبلية؛ لكي تشغل بها القبائل العربية وتبعدها عن معارضة الحكم الأموي^(١٥). ما أدى إلى زرع روح الفرقة بين القبائل، وفقدان الوحدة العصبية والسياسة التي تمثل قوة القبائل، فكانت بدلاً عنها نزعة المصلحة والمنفعة والفرقة التي زرعتها بعض الحكام والولاة، ما دفع بالشعراء إلى استغلال الوضع، فقد «استطاعوا أن يستغلوا هذه القبليّة وما تنطوي عليه من عصبية في شعرهم، ليكونوا الألسنة الناطقة لقبائلهم المعبرة عن حياتها»^(١٦)، فنجد من الشعراء من قام بدور السفير عن قبيلته، أو عن بعض القبائل التي تكلم بلسانها؛

ليان ما لحقها من أذى بسبب العصبية القبليّة، ونظير ذلك قول جرير: (من الوافر)

أَلَا هَلْ لِلْخَلِيفَةِ فِي نِزَارٍ فَقَدَ أَمْسُوا وَأَكْثَرُهُمْ كُلُوبُ
وَتَدْعُوكَ الْأَرَامِلُ وَالْيَتَامَى وَمَنْ أَمْسَى وَلَيْسَ بِهِ حَوِيلُ
وَتَشْكُو الْمَاشِيَاتُ إِلَيْكَ جَهْدًا وَلَا صَعْبٌ لَهْنٌ وَلَا ذَلُولُ
وَأَكْثَرُ زَادِهِنَّ وَهِنَّ سُنْفَعٌ حُطَامُ الْجُلْدِ وَالْعَصَبُ الْمَلِيلُ
وَيَدْعُوكَ الْمُكَلَّفُ بَعْدَ جَهْدٍ وَعَانَ قَدْ أَضْرَّ بِهِ الْكُبُولُ
وَمَا زَالَتْ مُعَلَّقَةً بِنَدِي بِذِي الدِّيَاسِ أَوْ رَجُلٍ قَتِيلُ
فَرَجَّتَ الْهَمَّ وَالْحَلَقَاتِ عَنْهُمْ فَأَحْيَا النَّاسَ وَالْبَلَدُ الْمُحُولُ
إِذَا ابْتَدَرَ الْمَكَارِمُ كَانَ فِيكُمْ رَيْعُ النَّاسِ وَالْحَسْبُ الْأَثِيلُ^(١٧)

إذ يستنجد الشاعر في هذه الأبيات بالحاكم عبر مدحه لرفع ما وقع من ظلم وحيث على القبائل النزاريّة؛ بسبب سياسة بعض الخلفاء والولاة، ولاسيما الحجاج، واصفاً الخليفة بالزبيح الذي يُعيد الحياة والهناء إلى الأرض الجدبة الفقيرة! ونراه في قصيدة أخرى يحاول التقرب من الخليفة عبد العزيز بن مروان، من خلال مدحه، ومن ثم يقرب بين قيس وبين تميم والحكومة؛ إذ إن الشاعر كان في عصبية «تميميّاً قيسيّاً»^(١٨)، قال: (من الطويل)

فإِنَّ تَمِيمًا فَاعْلَمَنَّ أَخُوكُمْ وَمَنْ خَيْرٌ مَنْ أْبَلَيْتَ عَافِيَةً شُكْرًا
إِذَا سِتُّمُ هِجْتُمْ تَمِيمًا فَهَجْتُمْ لِيُوثَ الْوَجَى يَهْصِرْنَ أَعْدَاءَكُمْ هَضْرًا
تَقُودُ الْجِيَادَ الْمُقْرَبَاتِ عَلَى الْوَجَى لِأَعْدَائِكُمْ حَتَّى أَبْرِنَاهُمْ قَسْرًا^(١٩)
فالشاعر اتخذ موقفه هذا؛ للخلاص من الظلم الذي لحق هذه القبائل بسبب

العصبية، ولا سيما أن بني أمية قرّبوا القبائل اليمينية، وآثروهم بالعطاء والمساندة. أمّا الفرزدق التميمي، فمن مواقفه حيال هذه العصبية، التي أدت إلى لحاق الأذى بقبائل كثيرة، موقفه من قبائل مضر في العراق والشام، مناصراً لها، واقفاً ضدّ خالد القسريّ اليمينيّ الذي انتهك حرمة هذه القبائل وسلبها حقوقها، ما دفع بالشاعر إلى الوقوف بجانبها، مستنجداً ببهشام بن عبد الملك لإنقاذ قبائل مضر، مترجماً له هذا الظلم بأبيات منها: (من الطويل)

بكت عينٌ محزونٌ فطالَ انسجامُها وطالت ليالي حادٍ لا ينامُها
فإن نبك لانبك المصيبات إذ أتى بها الدهرُ والأيامُ جمَّ خصامُها
ولكننا نبكي تنهك خالدٍ محارمَ منا لا يحلُّ حرامُها
أرى مضرَ المصرين قد ذلَّ نصرُها ولكن قيساً، لا يُذلُّ شامُها
فمن مبلِّغ بالشام قيساً وخندفاً أحاديث ما يُشفى بُرءِ سقامُها
أحاديث ما نشتكيها إليهم ومُظلمةٌ يغشى الوجوه ظلامُها^(٢٠)

فقد قام الشاعرُ بدور السفير؛ لبيّن للخليفة سياسة خالد القسريّ التعصبية حيال قبائل مضر، التي ذلّت، وباتت العيون تبكيها بكاءً مستمراً، بعدما انتُهكت حرمتها، وحرمت حقوقها.

وهكذا نجد أن الشعر كان الصورة الناطقة والمعبرة عن سوء معاملة بعض العمّال والسعاة، وظلمهم للرعية؛ لذا نهض الشعراء للتعبير عن هذه الطبقات، محاولين الإصلاح عن طريق استرداد أموال الناس من أيدي المستغلين، مؤدّين مهمة إنسانية وقيادية في الوقت نفسه، ومتعاملين مع الحياة في إطار التفاعل والامتزاج بقضاياها المهمة.

المبحث الثاني: الإصلاح الاقتصادي

ارتفعت أصوات شعراء البصرة للتعبير عن الإصلاح الاقتصادي الناجم عن دوافع وأسباب متعددة. فنجد من الشعراء الذين مثّلوا قومهم لدى الخلفاء والولاة محاولة منهم لإنقاذهم ممّا هم فيه من فقر وجوع، عبّر تصويرهم حالة فقرهم، الشّاعر الفرزدق الذي مدح الوليد بن عبد الملك (ت ١٢٦هـ) بقوله:
(من الطويل)

فَكَمْ مِنْ مُنَادٍ، وَالشَّرِيفَانِ دُونَهُ

إِلَى اللَّهِ تُشْكِي وَالْوَلِيدِ مَفَاقِرُهُ

فَقَالُوا: أَغْنَيْنَا إِنْ بَلَغْتَ بَدْعُوَّةَ

لَنَا عِنْدَ خَيْرِ النَّاسِ، إِنَّكَ زَائِرُهُ

فَقُلْتُ لَهُمْ: إِنْ يُبْلِغِ اللَّهُ نَاقَتِي

وَإِيَّايَ أَنْبِيَّ بِالَّذِي أَنَا خَابِرُهُ

أَغْنُ مُضْرًا! إِنْ السَّنِينُ تَتَابَعَتْ

عَلَيْهَا بَحْرٌ يَكْسِرُ الْعَظْمَ جَازِرُهُ

وَهُمْ حَيْثُ حَلَّ الْجُوعُ بَيْنَ تِهَامَةٍ

وَخَيْبَرٍ وَالْوَادِي الَّذِي الْجُوعُ حَاضِرُهُ

بِوَادٍ بِهِ مَاءُ الْكِلَابِ وَيَطْنُهُ
 بِهِ الْعَلَمُ الْبَاكِي مِنَ الْجُوعِ سَاجِرُهُ
 وَهَمَّتْ بِتَدْيِجِ الْكِلَابِ مِنَ الَّذِي
 بِهَا أَسَدٌ إِذْ أَمْسَكَ الْغَيْثَ مَاطِرُهُ
 أَغْنَيْتَنِي بِكُنْهِي فِي نِزَارٍ وَمُقْبِلِي
 فَإِنِّي كَرِيمُ الْمَشْرِقَيْنِ وَشَاعِرُهُ
 وَإِنَّكَ رَاعِي اللَّهِ فِي الْأَرْضِ تَتَّهِي
 إِلَيْكَ نَوَاصِي كُلِّ أَمْرٍ وَآخِرُهُ^(٢١)

فالشاعرُ لسان قومِهِ لدى الخليفة، واصفاً ما حلَّ بهم من جوعٍ وفقْرٍ؛ بسبب الجذب والقحط اللذين أصاباهم، راسماً صورة فقرهم وحاجتهم بطريقة الوصف التقريري للحالة، وعبر ألفاظ تبعث في النفس الأسى والألم والحزن، وغرضه من ذلك الوصول إلى غاية في بيان حالهم أولاً، وإثارة استرحام الممدوح وتعاطفه ثانياً، وتحريك الهمة لتحقيق طلب الإغاثة ثالثاً.

ونجد للشاعر أبيات أخرٍ يحتج فيها على سياسة معاوية حين حرم الخنثات المجاشعيّ كامل عطائه، فجاء بأبيات انمازت بالقوّة، والاحتجاج العنيف لما وقع على الخنثات من ظلم، قائلاً: (من الطويل)

أَتَأْكُلُ مِيرَاثَ الْخُنْثَاتِ ظُلَامَةً وَمِيرَاثَ حَرْبٍ جَامِداً لَكَ ذَائِبَةً
 فَلَوْ كَانَ هَذَا الدِّينُ فِي جَاهِلِيَّةٍ عَرَفْتَ مِنَ الْمَوْلَى الْقَلِيلِ حَلَايِبَةً
 وَلَوْ كَانَ هَذَا الْأَمْرُ فِي غَيْرِ مُلْكِكُمْ لِأَبْدَيْتَهُ، أَوْ عَصَّ بِالْمَاءِ شَارِبُهُ^(٢٢)

فالشاعر مثل مجتمَع البصرة في مطالبتهم بالإصلاح الاقتصادي، والعدل

الاقتصاديّ والإنصاف، وحسن تدبير الأمور الماليّة التي تخصّ الرعيّة، ولهذا نجده يثور على يزيد بن عبد الملك حين وليّ عمر بن هبيرة على البصرة، قائلاً في ذلك: (من الوافر)

أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْتَ وَالِ شَفِيقٌ لَسْتَ بِالْوَالِيِ الْحَرِيصِ
أَأَطَعْتِ الْعِرَاقَ وَرَافِدِيَهُ فَزَارِيًّا أَحَدًا يَدَ الْقَمِيصِ^(٢٣)

ويستمرّ الشّاعر الفرزدق بأداء مهمّته أمام مجتمعه، محاولاً إصلاح الوضع الاقتصاديّ لدى البعض منهم، عن طريق قصائد المديح التي يوجّهها إلى الخلفاء والولاة، التي ينقل عبرها الحالة التي يريد التعبير عنها، من ذلك قوله في مدح سليمان بن عبد الملك: (من الطويل)

أَلَسْتَ تَرَى مِنْ حَوْلِ بَيْتِكَ عَائِدًا بِقَدْرِكَ قَدْ أَعْيَا عَلَيْهَا احتياها
فَكَيْفَ تُرِيدُ الْخَفْضَ بَعْدَ الَّذِي تَرَى نِسَاءً بِنَجْدٍ عُيِّلَ وَرَجَالُهَا
وَسُودَاءَ فِي أَهْدَامٍ كَلَّيْنَ أَقْبَلْتَ إِلَيْنَا بِهِمْ تَمَشِي وَعَنَّا سُؤَالُهَا
عَلَى عَاتِقَيْهَا اثْنَانِ مِنْهُمْ، وَإِنَّهَا لَتُرْعَدُ قَدْ كَادَتْ يُقْصُ هُزَالُهَا
وَمِنْ خَلْفِهَا ثِنْتَانِ كِلْتَاهُمَا هَا تَعَلَّقَ بِالْأَهْدَامِ، وَالشَّرُّ حَالُهَا
وَفِي حَجْرِهَا تَحْزُومَةٌ مِنْ وَرَائِهَا سُعِيَاءٌ، لَمْ يَتِمَّ لِحَوْلِ فَصَالُهَا
فَخَحَّرَتْ، وَأَلْقَتْهُمْ إِلَيْنَا كَأَنَّهَا نَعَامَةٌ مَحَلٌّ، جَانِبُهَا رِثَالُهَا
إِلَى حُجْرَةٍ كَمِ مِنْ خِبَاءٍ وَقَبَّةٍ إِلَيْهَا، وَهَالِكٌ كَثِيرٌ عِيَالُهَا^(٢٤)

قام الشّاعر بنقل الحالة إلى الممدوح بصورة مباشرة، وتصوير حيّ للحالة، عن طريق وصف أزياء النّساء، وأشخاصهنّ المتهالكة، مع وصف عامّ لحالة البؤس والفقر، عن طريق حوار على لسان زوجته النّوار.

ونجده في قصيدة أخرى يخاطب بها عمر بن عبد العزيز، قائلاً:

وَسَاقْنَا مِنْ قَسَا يُزْجِي رَكَابَنَا إِلَيْكَ مُنْتَجِعُ الْحَاجَاتِ وَالْقَدَرُ
وَجَائِحَاتٌ ثَلَاثٌ مَا تَرَكْنَا لَنَا مَا لَّا بِهِ بَعْدَهُنَّ الْغَيْثُ يُنْتَظَرُ
ثِنْتَانِ لَمْ يَتْرُكَا لَحْمًا وَحَاطِمَةً بِالْعَظْمِ حَمْرَاءُ حَتَّى اجْتِيحَتِ الْغُرُ
فَقُلْتُ: كَيْفَ بَأَهْلِي حِينَ عَضَّ بِهِمْ عَامٌ لَهُ كُلُّ مَالٍ مُعْنَقٌ جَزْرُ؟
عَامٌ أَتَى قَبْلَهُ عَامَانِ مَا تَرَكَا مَا لَّا وَلَا بَلَّ عَوْدًا فِيهَا مَطَرٌ^(٢٥)

ونجد الشاعر جرير في قصيدة مدح فيها الحجاج ينقل له في نهايتها صورة

عن حالة الفقر والجوع التي تعرّض لها الناس طالباً لإصلاح الحالة، قائلاً:

أَلَا نَشْكُو إِلَيْكَ زَمَانَ مَحَلٍّ وَشُرِبَ الْمَاءِ فِي زَمَنِ الْجَلِيدِ
وَمَعْتَبَةَ الْعِيَالِ وَهُمْ سَغَابٌ عَلَى دَرِّ الْمَجَالِحَةِ الرَّفُودِ
زَمَانًا يَتْرُكُ الْفَتِيَاتِ سُودًا وَقَدْ كَانَ الْمَحَاجِرُ غَيْرَ سُودٍ^(٢٦)

وفي قصيدة أخرى يخاطب بها عمر بن عبد العزيز، يمزج فيها بين المدح

وطلب الاستغاثة لتغيير الوضع الاقتصادي لقومه، قائلاً:

أَذْكَرُ الْجَهْدَ وَالْبَلْوَى الَّتِي نَزَلَتْ أَمْ قَدْ كَفَانِي الَّذِي بُلِّغْتَ مِنْ خَبْرِي
مَا زِلْتُ بَعْدَكَ فِي دَارٍ تَعَرَّقْنِي قَدْ عَمِيَ بِالْحَيِّ إِصْعَادِي وَمُنْحَدِرِي
لَا يَنْفَعُ الْحَاضِرُ الْمَجْهُودُ بَادِيَهُ وَلَا يَعُودُ لَنَا بَادٍ عَلَى حَضْرِي
كَمْ بِالْمَوَاسِمِ مِنْ شَعَثَاءِ أَرْمَلَةٍ وَمِنْ يَتِيمٍ ضَعِيفِ الصَّوْتِ وَالْبَصْرِ
يَدْعُوكَ دَعْوَةَ مَلْهُوفٍ كَأَنَّ بِهِ خَبَلًا مِنَ الْجَنِّ أَوْ خَبَلًا مِنَ النَّشْرِ
يَمَّنْ يَعْذُكَ تَكْفِي فَقَدَ وَالِدِهِ كَالْفَرْخِ فِي الْعُشِّ لَمْ يَدْرُجْ وَلَمْ يَطْرِ
يَرْجُوكَ مِثْلَ رَجَاءِ الْغَيْثِ تَجْرُهُمْ بُورِكَتِ جَابِرِ عَظْمِ هَيْضَ مُنْكَسِرِ

فَإِنْ تَدْعُهُمْ فَمَنْ يَرْجُونَ بَعْدَكُمْ أَوْ تُنَجِّ مِنْهَا فَقَدْ أَنْجَيْتَ مِنْ ضَرَرٍ^(٢٧)
وممّا تقدّم يتّضح لنا أنّ الظروف السّياسيّة والاقتصاديّة دفعت بالشّعراء إلى ترك الدّيار، والوقوف بين أيدي الخلفاء والولاة، ونظّم قصائد المديح فيهم؛ للظفر بعطفهم، ومحاولة للتغيير والإصلاح السّياسيّ، والاقتصاديّ، عن طريق ما كانوا ينظّمونه من قصائد، ومنها: قصائد المديح التي أصبحت في العصر الأمويّ «أثراً من آثار الحياة الاقتصاديّة، أو هو وسيلة من وسائل التغلّب على المشكلات الاقتصاديّة التي يعانيتها صاحبه»^(٢٨).

الخاتمة

وبعد هذه الرحلة بين سطور دواوين شعراء البصرة، توصلنا إلى الآتي:

١- كان سوء الأوضاع السياسية والاقتصادية في البصرة في العصر الأموي، سبباً لظهور الإصلاح السياسي، والاقتصادي.

٢- قصدنا بالإصلاح السياسي: محاولة تصحيح الخلل السياسي الحاصل بسبب سياسة بعض الخلفاء والولاة وعمال الصدقات والسعاة، أما الإصلاح الاقتصادي، فقصدنا به إصلاح الوضع الاقتصادي لدى فئات معينة في مجتمع البصرة؛ بسبب الظلم الذي لحق بهم من سياسة الدولة، أو بسبب الظروف المناخية، والعوامل الطبيعية التي أدت إلى حدوث مجاعة عند بعض القبائل.

٣- استطاع شعراء البصرة القيام بمهمة الإصلاح، والمطالبة به على أكمل وجه، عن طريق وقوفهم بين أيدي الخلفاء والولاة؛ للمطالبة بحقوقهم، والإصلاح والتغيير، والضرب على أيدي الفاسدين، فضلاً عن دورهم في تنبيه المخاطب، على كل ما وجد من حالات الظلم السياسي والاقتصادي، والدفع به إلى طريق الإصلاح، ورفع الظلم عن المظلومين.

٤- كان من أهم الشعراء الذين تحمّلوا مهمة الإصلاح، وقاموا بدور السفراء لدى الخلفاء؛ لتحقيق غاياتهم في الإصلاح هم: الفرزدق، وجري، والرّاعي النميري.

الهوامش

- ١- ينظر: لسان العرب مادة (صلح).
- ٢- ينظر: الحياة الأدبية في البصرة: ص ٢٦٥-٢٩٠.
- ٣- ديوان أبي الأسود الدؤلي: ص ١١٨-١١٩.
- ٤- المصدر السابق: ص ١٠٨-١٠٩، يمرّ: يفتل، المريرة: الحبل الطويل الدقيق وقيل العزيمة، إمرار الحبل: إحكام قتله.
- ٥- الحياة الأدبية في البصرة: ص ٢٨٤.
- ٦- ديوان الفرزدق: ٢/ ٨٢٠.
- ٧- المصدر السابق: ١/ ٣٥١-٣٥٣.
- ٨- الرّاعي النّميريّ عصره-حياته-شعره: ص ١٦٨.
- ٩- الحياة الأدبية في البصرة: ص ٢٨٣.
- ١٠- شعر الرّاعي النّميريّ: ص ٥٤-٦١. الظلمة: الصّحة، شلو الإنسان: جسده بعد بلاه، الغول: الدّاهية، وكلّ ما أهلك الإنسان فهو غول، الأفيال، من أولاد الإبل ما أتى عليه سبعة أشهر، عريف القوم: سيّدهم، الحيزوم: الصّدر وقيل: ما استدار بالظهر والبطن، الأصبحيّة: السّياط من القدّ، نُسبت إلى أصبح الحميريّ.
- ١١- شعر الرّاعي النّميريّ: ص ٥٩.
- ١٢- القصّة والحكاية في الشّعْر العربيّ في صدر الإسلام والعصر الأمويّ: ص ٢٩٣.
- ١٣- خزّانة الأدب: ٣/ ١٤٦.
- ١٤- شعر الرّاعي النّميريّ: ص ٨٩-٩١، الحلوبة: النّاقة التي تحلب، وفق العيال: لها لبن قدر كفايتهم لا فضل فيه، السّبد: الشّعْر وقيل: الوبر، التلاتل: الشّدائد، العقد: البقايا القليلة.
- ١٥- يُنظر: العصبية القبليّة: ص ٢٤٣.

- ١٦- حياة الشُّعر في الكوفة: ص ٤٥١.
- ١٧- شرح ديوان جرير: ص ٤٣٢-٤٣٣، الكل: العيال، الحويل: الحيلة والقوّة، يريد بالماشيات النسوة الأرامل.
- ١٨- تاريخ الشُّعر السِّيَاسِيِّ: ص ٣١٧.
- ١٩- شرح ديوان جرير: ص ٢٢٤، المقربات: التي من البيوت لتؤثر بالزاد وبكلّ شيء، أبرناهم: أهلكتناهم.
- ٢٠- شرح ديوان الفرزدق: ٢ / ٧٩٠-٧٩٢.
- ٢١- شرح ديوان الفرزدق: ١ / ٣٠٩-٣١٢. مفاقره: الفقر، الحزّ: القطع، الجازر: الناجر.
- ٢٢- المصدر السَّابِق: ١ / ٤٩.
- ٢٣- المصدر السَّابِق: ٢ / ٤٨٧.
- ٢٤- المصدر السَّابِق: ٢ / ٦١٩.
- ٢٥- المصدر السَّابِق: ١ / ٢١٩-٢٢٠.
- ٢٦- شرح ديوان جرير: ص ١٢١.
- ٢٧- المصدر السَّابِق: ص ٢٧٤-٢٧٥.
- ٢٨- حياة الشُّعر في الكوفة: ص ٤٨٩.

المصادر والمراجع

- ١- تاريخ الشعر السياسيّ إلى منتصف القرن الثاني، أحمد الشّايب، مطبعة السّعادة مصر، ط٣، ١٩٦٢م.
- ٢- الحياة الأدبيّة في البصرة إلى نهاية القرن الثاني الهجريّ، د. أحمد كمال زكي، دار المعارف، مصر، ١٩٧١م.
- ٣- حياة الشعر في الكوفة إلى نهاية القرن الثاني للهجرة، د. يوسف خليف، دار الكاتب للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٨م.
- ٤- خزنة الأدب ولبّ لباب لسان العرب، عبد القادر بن عمر البغداديّ (ت ١٠٩٣هـ)، تحقيق: عبد السّلام هارون، دار الكاتب العربيّ، القاهرة، ١٩٦٨م.
- ٥- ديوان أبي الأسود الدؤليّ، تحقيق: د. محمّد حسن آل ياسين، مطبعة المعارف، بغداد، ط٢، ١٩٦٤م.
- ٦- الرّاعي النّميريّ (عبيد بحصين) عصره، حياته، شعره، د. محمّد نبيه حجاب، مطبعة الرّسالة، مصر، (د.ط)، (د.ت).
- ٧- شرح ديوان جرير، عبد الله إساعيل الصّاوي، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت لبنان، (د.ت).
- ٨- شرح ديوان الفرزدق: عبد الله إساعيل الصّاوي، مطبعة الصّاوي، القاهرة، ١٩٣٦م.
- ٩- شعر البصرة في العصر الأمويّ (دراسة في السّياسة والاجتماع)، د. عون الشّريف قاسم، دار الثقافة، بيروت لبنان، ١٩٧٢م.
- ١٠- شعر الرّاعي النّميريّ، د. نوري القيسيّ، و د. هلال ناجي، مطبعة المجمع العلميّ، العراق، ١٩٨٠م.
- ١١- العصبيّة القبليّة وأثرها في الشعر الأمويّ، د. إحسان النّصّ، دار اليقظة العربيّة للتأليف والنشر، (د.ط)، (د.ت).

- ١٢- القِصَّة والحِكاية في الشُّعر العربيِّ في صدر الإسلام والعصر الأمويِّ، د. بشرى محمَّد عليّ الخطيب، دار الشُّؤون الثقافيَّة العامَّة، ط١، بغداد، ١٩٩٠م.
- ١٣- لسان العرب، لأبي الفضل، جمال الدِّين بن منظور (ت ٧١١هـ)، تحقيق: نخبة من الأساتذة المختصِّين، دار الحديث، القاهرة، ٢٠٠٣م.